رسالة في النابتة

Un traité inédit de Djâhiz.

هذه رسالة لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الى ابي الوليد محمد بن احمد بن ابي دواد في النابتة

حضرة صديقي الاب انستاس الكرملي المحترم

كنت بعثت لكم بارجوزة في الظاء والضاد منسوبة لابن قتيبة وجدتها في مجموعة خطية في مدرسة الحجيات في الموصل فادرجتموها في مجلتكم في جزءها السادس من سنتها السابعة . ووجدت قد وقع فيها اغلاط مطبعية لا بد انكم اشرتم الى تصحيحها . واطلعت بعد ذلك على مقال للفاضل كركوكي ينكر نسبة الارجوزة المذكورة لابن قتيبة . اما انا فلا اؤيد هذه النسبة ولا انكرها انما اقول اني نقلتها بامانة كما وجدتها .

والآن اقدم لكم رسالة للجاحظ منقولة من المجموعة نفسها اجتهدت بتصحيح بعض اغلاطها وذكرت الخطأ كما هو لامانة النقل وذكرت تصحيحي عقبه بين عضادتين . ارجو نشرها في مجلتكم الغراء ان وجدتم في نشرها فائدة واقبلوا مني فائق الاحترام .

الموصل الدكتور داود الجلبي

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

اطال الله بقاءك واتم نعمه عليك وكرامته لك . اعلم ارشد الله امرك ان هذه الامة قد صارت بعد اسلامها والخروج من جاهليتها الى طبقات متفاوتة ومنازل مختلفة . فالطبقة الاولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم وابي بكر وعمر وستسنين من خلافة عثمان (رض) كانوا على التوحيد الصحيح والاخلاص المخلص مع الالفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة وليس هناك عمل قبيح ولا بدعة فاحشة ولا نزع يد من طاعة ولا حسد ولا غل ولا تاول حتى كان الذي كان من قتل عثمان وما انتهك منه ومن خبطهم اياه بالسلاح وبعج بطنه بالحراب

وفري اوداجه بالمشاقص وشدخ هامته بالعمد مع كفه عن البسط ونهيه عن الامتناع [كذا ولا يستقيم له معنى] مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه لا يجوز قتل من شهد الشهادة وصلى القبلة [لعلها الى القبلة] واكل الذبيحة . ومع ضرب نسائه بحضرته واقحام الرجال على حرمته مع ايقاء [لعله اتقاء] نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها حتى اطنوا [اي قطعوا] اصبعين من اصابعها وقد كشفت عن قناعها ورفعت عن ديلها [ذيلها] ليكون ذلك ردعا لهم وكاسرا من عنهم [لعله عنتهم] . مع وطئهم في اضلاعه بعد موته والقائهم على المزبلة جسده مجردا بعد سحبه . وهي الجزرة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا لبناته وايامأه وعقائله بعد السب والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت مع احتجاجه عليهم واقحامه لهم ومع اجتماعهم على ان دم الفاسق حرام كدم المؤمن إلّا من ارتد بعد الاسلام او زنى بعد احصان او قتل مؤمنا على عمد او رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم منه عطبه ومع اجتماعهم على ان لا يقبل [يقتل] من هذه الامة مولى ولا يجهز منها على جريح . ثم مع ذلك كله دفروا [ونفضوا] عليه وعلى ازواجه وحرمه وهو جالس في محرابه ومصحفه يلوح في حجره لن يرى ان موحدا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله لاجرم لقد اجتلبوا به ذما [دما] لا تطير رغوته ولا تسكن فورته ولا يموت ثائره ولا يكل طالبه وكيف يضيع دم الله وليه والمنتقم ؟ وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا (عم) غلا [غلى] فليانه وقتل سافحه وادرك بطائله وبلغ كل محبته (؟؟) كدمه رضي الله عنه ورحمه .

ولقد كان لهم في اخذه وفي امامته [؟] للناس والاقتصاص منه وفي بيع ما ظهر من رباعه وحدائقه وسائر اقواله [اموالها] وفي حبسه بما بقي عليه وفي ظهره [طرده] حتى لا يحس بذكره ما يغنيهم عن قتله ان كان قد ركب كلما قدعوه [كل ما قذفوه] به او اودعوه . وهذا كله بحضرة جلة المهاجرين والسلف المتقدمين والانصار والتابعين . ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ومراتب متباينة من قاتل ومن شاد على عضده ومن خاذل عن نصرته . والعاجز قاصر بارادته ومطيع بحسن نيته . وانما الشك منافيه وفي خاذله ومن اراد

عزله والاستبدال به فاما القائل والمعين على دمه والمريد لذلك منه فضلال لا شك فيهم ومراق لا امتراء في حكمهم . على هذا لم يعد منهم الفجور اما على سوء تأويل واما على تعمد للشقاء .

ثم مازالت الفتن متصلة والحروب مترادفة كحرب الجمل وكوقائع صفين وكيوم النهروان وقبل ذلك يوم الزابوقة وفيه اسر ابو حيف وقتل حكيم بن جبلة الى ان قتل اشقاها علي بن ابي طالب رض فاسعده الله تعالى بالشهادة واوجب لقاتله النار والاسنة . الى ان كان من اعتزال الحسن رض الحروب وتخليه الامور عند انتشار اصحابه وكثرة تلونهم عليه . فعندها استوى معاوية على الملك واستند على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذي سموه عام الجماعة . وما كان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكا كسرويا والخلافة عضبا [غصبا] قيصريا ولم يعد ذلك اجمع الضلال والفسق . ثم مازالت معاصيه من جنس ماحكينا وعلى منازل مارتبنا حتى رد قضية رسول الله ص ردا مكشوفا وجحد حكمه جحدا ظاهرا في ولد الفراش وما يجب للماهر مع اجماع الامة ان سمية لم تكن لابي سفين [سفيان] فراشا وانه انما كان بها عاهرا . فخرج بذلك من حكم الفجار الى حكم الكفار . وليس قتل حجر بن عدي واطعام عمرو بن العاص خراج مصر وبيعة يزيد الخليع والاستئثار بالفي [بالفيء] واختبار [واختيار] الولاة على الهوى وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة من جنس حد الاحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة . وسواء في باب ما يستحق من الاكفار حجر الكتاب ورد السنة اذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره . إلا ان احدهما اعظم وعقاب الاخرة عليه اشد . فهذه اول كفرة كانت في الامة .

ثم لم يكن إلا فمن [لم تكن إلا ممن] يدعي امامتها والخلافة عليها على ان كثيرا من اهل ذلك العصر قد كفروا بترك اكفاره . وقد أربت عليهم ثابتة [نابتة] عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالت لا قوة [لا تسبوه] فان له صحبة وسب معوية [معاوية] بدعة . ومن يبغضه فقد خالف السنة . فزعمت ان من السنة ترك البراءة ممن جحد السنة . ثم الذي كان من يزيد ابنه ومن عماله واهل

نصرته ثم غزو مكة ورمي الكعبة واستباحة المدينة وقتل الحسين رض في اكثر اهل بيته مصابيح الظلام واوتاد الاسلام بعد الذي اعطا [اعطى] من نفسه من تفريق اتباعه والرجوع الى داره وحرمه او الذهاب في الارض حتى لا يحس به او المقام حيث احر [أمر] به فأبوا إلّا قتله والنزول على حكمهم وسواء قتل نفسه بيده او اسلمها الى عدوه وغير فيها من لا يبرد غليله إلّا بشرب دمه فاحسبوا قتله ليس بكفر واباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بحجة . كيف يقول [تقولون او يقال] في رمي الكعبة وهدم البيت الحرام وقتله المسلمين فان قلتم ليس ذلك ارادوا بل انما ارادوا المتحزب به والمتحصن بحيطانه . انما كان في حق البيت وحريمه ان يحصروه فيه الى ان يعطي بيده . واي شيء بقي من رجل قد اخذت عليه الارض إلّا موضع قدمه . واحسب ما ووا عليه من الاشعار التي قولها شرك والتمثيل [التمثل] بها كفر وشيا [وشيئا] مصنوعا كيف يصنع بنقر القضيب بين ثنيتي الحسين عم وحمل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الاقتاب العارية والابل الصعاب والكشف عن عورة علي بن الحسين عند الشك في بلوغه على انهم ان وجدوه وقد انبت قتلوه وان لم يكن انبت حملوه كما يصنع امير جيش المسلمين بذراري المشركين . وكيف يقول في قول عبيد الله بن زياد لاخوته وخاصته دعوني اقتله فانه بقية هذا النسل فاحسم به هذا القرن واميت به هذا الداء واقطع به هذه المادة .

خبرونا على ما يدل هذه القسوة وهذه الغلظة بعد ان شفوا نفوسهم بقتلهم ونالوا ما احبوا فيهم [منهم] ايدل على نصب وسوء رأي وحقد وبغض ونفاق وعلى يقين مدخول وايمان ممزوج ام يدل على الاخلاص وعلى حب النبي (عم) والحفظ له وعلى براة [براءة] الساحة وصحة السريرة . فان كان على ما وصفنا لا يعدوا [لا يعدو] الفسق والضلال وذلك ادنى منازلة . فالفاسق ملعون ومن نهى عن لعن الملعون فملعون .

وزعمت نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا ان سبب ولاة السوء فتنة ولعن الجورة بدعة وان كانوا يأخذون السمي بالسمي والولي بالولي والقريب بالقريب واخافوا الاولياء وآمنوا الاعداء وحكموا بالشفاعة والهوى واظهار القدرة والتهاون بالامة

والقمع للرعية وانهم في غير مداراة ولا تقية وان عدا ذلك الى الكفر وجاوز الضلال الى الجحد فذاك اضل لمن كف عن شيمتهم [شتمهم] والبراة [البراءة] منهم على انه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كمن استحقه برد السنة وهدم الكعبة . وليس من استحق اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجويز . والنابتة في هذا الوجه اكفر من يزيد وابيه وابن زياد وابيه ولو ثبت على يزيد انه تمثل بقول ابن الهمري [الزبعرى] :

ليت اشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل
لاستطاروا واستهلوا فرحا ثم قالوا يد زيد لا تشل
قد قتلنا الغر من سادتهم وعدلناه ببدر فعدل

كان تجويز النابتي [؟] لربه وتشبيهه بخلقه اعظم من ذلك واقطع على انهم مجمعون على انه ملعون من قتل مؤمنا متعمدا او متأولا . فاذا كان القاتل سلطانا جائرا او اميرا عاصيا لم يستحلوا سبه ولا خلعه ولا نفيه ولا عيبه وان اخاف الصلحاء وقتل الفقهاء واجاع الفقير وظلم الضعيف وعطل الحدود والثغور وشرب الخمور واظهر الفجور . ثم مازال الناس يتشكون [يتشكون] مرة ويداهنونهم مرة ويقاربونهم مرة ويشاركونهم مرة إلا بقية ممن عصمه الله تعالى حتى قام عبدالملك بن مروان وابنه الوليد وعاملهما الحجاج بن يوسف ومولاه يزيد بن ابي مسلمة فاعادوا [الكرة] على البيت بالهدم وعلى حرم المدينة بالغزو فهدموا الكعبة واستباحوا الحرمة وحولوا قبلة واسط وأخروا صلاة الجمعة الى مغيربان الشمس . فان قال رجل لاحدهم اتق الله فقد أخرت الصلوة عن وقتها قتله على هذا القول جهارا غير ختل وعلانية غير سر . ولا يعلم القتل على ذلك إلا اقبح من انكاره [؟] فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر باعظم منه . وقد كان بعض الصالحين ربما وعظ الجبابرة [الجبار] وخوفه العواقب واراه ان في الناس بقية ينهون عن الفساد في الارض حتى قام عبد [الملك] بن مروان والحجاج بن يوسف فزجرا عن ذلك وعاقبا عليه وقتلا فيه فصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه فاحسب تحويل القبلة كان غلطا وهدم البيت كان تأويلا واحسب

ما رووا من كل وجه انهم كانوا يزعمون ان خليفة المرء في اهله ارفع منزلة من رسوله اليهم باطلا ومصنوعا موكدا . واحسب وسم ايدي المسلمين وتقذ ايدي المسلمات وردهم بعد الهجرة الى القرى وقتل الفقهاء وسب ائمة الهدى والنصب لعترة رسول الله ص يكون كفرا كيف نقول في جمع ثلاث صلوات فيهن الجمعة ولا يصلون اولاهن حتى تصير الشمس على أعالي الجدران كالاآء] المعصفر فان نطق مسلم خبط بالسيف وأخذته العمد وشك بالرماح . وان قال قائل اتق الله اخذته العزة بالاثم ثم لم يرض إلّا نثر [ينثر] دماغه على صدره وبصلبه حيث يراه عياله .

ومما يدل على ان القوم لم يكونوا إلّا في طريق التمرد على الله عز وجل والاستخفاف بالدين والتهاون بالمسلمين والابتذال لاهل الحق اكل امرائهم الطعام وشربهم الشراب على منابرهم ايام جمعهم وجموعهم فعل ذلك حسن بن دلجة وطارق مولى عثمان والحجاج بن يوسف وغيرهم وذلك ان كان كفرا كله فلم يبلغ كفر نابتة عصرنا وروافض دهرنا لان جنس كفرها ولا غير كفر اولئك . كان اختلاف الناس في القدر على ان طائفة تقول كل شيء بقضاء وقدر وتقول الطائفة الاخرى كل شيء بقضاء وقدر إلّا المعاصي ولم يكن احد يقول ان الله يعذب الابناء ليغيظ [ليغيظ] الاباء وان الكفر والايمان مخلوقان في الانسان مثل العمى والبصر . وكانت طائفة منهم تقول ان الله لايرى لا تزيد على ذلك فان خافت ان نظن [يظن] بها التشبيه قالت يرى بلا كيف تعريا من التجسيم والتصوير حتى نبت [نبتت] هذه النابتة وتكلمت هذه الرافضة فقالت جسما وجعلت له صورة وحدا واكفرت من قال بالرؤية على غير الكيفية . ثم زعم اكثرهم ان كلام الله حسن وبين وحجة وبرهان وان التوراة غير الزبور والزبور غير الانجيل والانجيل غير القرآن والبقرة غير آل عمران . وان الله تولى تاليفه وجعله برهانه على صدق رسوله وانه لو شاء ان يزيد فيه زاد ولو شاء ان ينقص منه . ولو شاء تبدله [تبديله] بدله ولو شاء ان ينسخه كله بغيره نسخه . وانه نزله تنزيلا وانه فصله تفصيلا وانه بالله كاف دون غيره ولا يقدر عليه إلّا هو . غير ان الله مع ذلك كله لم يخلقه فاعطوا جميع صفات

الخلق . والعجب ان الخلق عند العرب انما هو التقدير نفسه فاذا [فاذا] قالوا خلق كذا وكذا . ولذلك قال احسن الخالقين . وقال يخلقون افكا . وقال واذ تخلق من الطين كهيئة الطير فقالوا صنعه وجعله وقدره و نزله وفصله واحدثه ومنعوا خلقه وليس تأويل خلقه اكثر من قدره واو قالوا بدل قولهم قدره ولم يخلقه خلقه ولم يقدره ما كانت المسئلة عليهم إلا من وجه واحد والعجب ان الذي منعه بزعمه ان يزعم انه بمخلوق انه لم يسمع ذلك من سلفه وهو يعلم انه لم يسمع ايضا عن سلفه انه ليس مخلوق وليس ذلك بهم . ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف وعلى جهة تقطيع الحروف واعمال اللسان والشفتين وان ما كان على هذه الصورة والصفة فليس بكلام ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة وكنا لكلامنا غير خالقين وجب ان الله عز وجل لكلامه غير خالق اذ كنا غير خالقين لكلامنا . فانما قالوا ذلك لانهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقا وان لم يقروا بذلك بالسنتهم فذلك معناهم وقصدهم .

وقد كانت هذه الامة لا تجاوز معاصيها الاثم والضلال إلا ما جلبت [حكيت] لك عن بني امية وبني مروان وعمالها ومن لم يدن بالكفارهم حتى بحمت [نجمت] النوابت وتابعتها هذه العوام . فصار الغالب على هذا القرن الكفر وهو التشبيه والجبر . فصار كفرهم اعظم من كفر من مضى في الاعمال التي هي الفسق وشركه من كفر منهم بتوليهم وترك اكفارهم . قال الله تعالى ومن يتولهم منكم فانه منهم . وارجو ان يكون الله قد اغاث المحقين ورحمهم وقوى ضعفهم وأكثر قلتهم حتى صاروا ولاة امرنا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد اشد استبصارا في التشبيه من علينا واعلم بما يلزم فيه منا واكشف للقناع من رؤسائنا وصارفوا الناس وقد انتظموا معاني الفساد اجمع وبلغوا غايات البدع ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم والحمية التي لا تبقي دينا إلا افسدته ولا دنيا إلا اهلكتها . وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعوبية وما قد صار اليه الموالي من الفخر على العجم والعرب . وقد نجمت من الموالي ناجمة ونبتت منهم نابتة تزعم ان المولى بولائه قد صار عربيا لقول النبي عليه

السلام مولى القوم منهم ولقوله الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب قال [قالوا] فقد علمنا ان العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا اشرف من العرب وان الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب اشرف منهم قالوا فنحن معاشر الموالي تقديمنا [بقديمنا] في العجم اشرف من العرب وبالحديث الذي صار لنا في العرب اشرف من العجم . وللعرب [الحديث دون القديم وللعجم] القديم دون الحديث . ولنا خصلتان جميعا وافرتان فينا . وصاحب الخصلتين افضل من صاحب الخصلة . وقد جعل الله الموالي [المولى] بعد ان كان عجميا عربيا بولائه كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بحلفه وبعد ان جعل اسمعيل بعد ان كان اعجميا عربيا . ولولا قول النبي صلعم ان اسمعيل كان عربيا ما كان عندنا إلا اعجميا لان الاعجم لايصير عربيا . كما ان العربي لايصير اعجميا . فانما علمنا ان اسمعيل صيره الله تعالى عربيا بعد ان كان اعجميا بقول النبي صلى الله عليه وسلم فكذلك حكم قوله مولى القوم منهم . وقوله الولاء لحمة . قالوا وقد جعل الله ابراهيم ع م ابا لمن لم يلد كما جعله ابا لمن ولد . وجعل ازواج النبي امهات المؤمنين ولم يلدن منهم احدا . وجعل الجار والدمن لم يلد في قول غير هذا كثير وقد اتينا عليه في موضعه . وليس ادعى الى الفساد ولا اجلب للشر من المفاخرة . وليس على ظهرها إلا فجور إلا قليل . واي شيء اعيظ [اغيظ] من ان يكون عبدك يزعم انه اشرف منك وهو مقر انه صار شريفا بعتقك اياه .

وقد كتبت مد الله في عمرك كتبا في مفاخرة قحطان وفي تفضيل عدنان وفي رد الموالي الى مكانهم من الفضل والنقص والى قدر ماجعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف . وارجو ان يكون عدلا بينهم وداعية الى صلاحهم ومنبهة لما عليهم ولهم . وقد اردت ان ارسل بالجزء الاول اليك ثم رأيت الا يكون إلا بعد استئذانك واستمارك والانتهاء في ذلك الى رغبتك فرأيك فيه موفقا ان شاء عز وجل وبه الثقة .

تم كتاب ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النابتة والحمد لله اولا واخرا والصلوة على خير خلقه محمد وآله وصحبه اجمعين آمين .